ماذا تعني فلسفة الظاهريات ؟

بقلم عبد الفتاح الديدي

من المؤكد ان صعوبة المسائل الفلسفية هي التي تدفع بالكثيرين الى الانصراف عنها الى سواها من المسائل الادبية او الفنية او التاريخية . انه من اليسير فهم هذه المسائل الاخيرة . اما الفلسفة فتصد القارىء او المستمع بعباراتها المنطقية الجافة والفاظها الخاصة كالشعور والاحساس والادراك والتصور والمعرفة وحتى كلمة الظاهريات نفسها في حاجة الى تعريف وتفسير .

ولكني سأعمد في هذا البحث الى تقديم هذه الفلسفة الى القراء بالاسلوب المبسط الذي لا يستخدم الفاظا فلسفية كثيرة حتى نجعلها واضحة قريبة الى الاذهان . وليس معنى هذا ان فلسفة الظاهريات نفسها واضحة فهي في الواقع من اصعب الفلسفات ومن اشدها غموضا ، ولا تزال اكثر جوانبها في حاجة الى تقريب وتفسير . ولكن هذا لا يمنع ان نحاول هنا تعريفها وتحديد خصائصها بطريقة تجعل اصولها في متناول اليد .

واسم الظاهرية مأخوذ من الظاهرة ، والظاهرة هي ما يواجه المرء تلقائيا في الادراك العادي . وليس هناك ادنى علاقة بين هذه الفلسفة وبين اسم المظهرية وهو ما يعني الاعتماد على المرأى والشكل الخارجي. ذلك لان هذه الفلسفة لا تقسم الاشياء الى باطن وظاهر وانما تحارب هذا الانقسام وتعمل على اشاعة فهم الحقائق ابتداء من وحدتها الاصيلة في شكلها الخارجي ووضعها الداخلي . الظاهرية اذن لا تفرق بين المظهر والمخبر ولا ترى في حقيقة اي شيء سوى انعكاسه على صفحة الفكر البشري وهي ما نسميه بالذات الانسانية .

لقد ظهرت فلسفة الظاهريات على يد فيلسوف الماني مات سنة ١٩٣٨ عن ٧٩ عاما وهو ادموند هوسرل . حاول هوسرل في مستهل هذا القرن ان يقدم تحليلات لفكرة الظاهريات من ناحية ثم للمنهج الظاهري في التفكير من ناحية اخرى . والظاهرية عند هوسرل هي عبارة عن وصف وتحليل للاحداث التي تقع على هيئة تمثل وحكم ومعرفة . ولهذا ينبغي ان تقف هذه الفلسفة موقفا محايدا بين علم النفس الذي يصوب نحو التفسير العلي والناسلي لهذه الاحداث وبين المنطق البحت الذي يشغل نفسه بالقوانين المثالية . ولكن الظاهرية مع هذا تعكف على متابعة وتحليل العمليات التي تؤدي الى وضع هذه القوانين .

او بعبارة اخرى تقتصر الظاهرية مع هذا على الوصف التحليلي لعمليات التمثل والحكم والمعرفة . فالذات الانسانية محاطة بالموجودات وبالناس الاخرين وهي بطبيعة وضعها وسط مظاهر العيش والحياة مضطرة الى ان تدرك الاشياء وان تصدر احكاما عن كل ما يشغلها كما انها تصل الى معرفة الحقائق . فهذا هو الاسلوب الطبيعي للحياة التي تخص الذات الانسانية . والوصف التحليلي الذي تقوم به الظاهريات مختلف عن كل اختصاصات علم النفس او علم المنطق . فعلم النفس يدرس الاشياء من حيث تطورها ونموها ونشوؤها الاولى وارتباط الوقائع بعضها ببعض وكون بعض الاحداث نتيجة لبعضها الاخر . وهذا هو ما نطلق عليه اسم التفسير العلي والناسلي . اما الانشغال بقوانين الفكر المثالية فمن مهمة علم المنطق . ومعنى هذا ان المنطق يدرس عمليات الفكر من حيث هي نتائج مستخلصة من مقدمات سابقة عليها . فالقوانين المثالية للفكر هي القوانين الضرورية الناجمة عن تسلسل الافكار وترتب بعضها على بعض .

ولا تريد الظاهرية ان تقتحم هذه المجالات الخاصة بعلمي النفس والمنطق ولا تريد ان تستعير منهما ما يلزم من اجل التفسير العلمي العادي . فهما لا يكفيان في حد ذاتهما لاداء الدور الفلسفي الكبير الذي تطالب به الظاهرية نفسها او الجانب الهام الذي تفرضه على نفسها وتختص به . والمنهج الظاهري لا يحب ان يوهم الناس بأنه سيقوم بحل جميع اشكالات الفلسفة . وهوسرل نفسه حاول ان يطبق المنهج الظاهري في فلسفته وان يظل مخلصا له . فأعلن في كتاب من اوائل كتبه عن « الافكار » انه لن يقوم بحل اشكالات الفلسفة الظاهرية وحسبه ان يقوم بوضعها وضعا سليما من حيث هي مشاكل . وهذا المنهج الظاهري يعادل العلوم المنطقية والنفسية بل والطبيعية ايضا في صدقها وسلامة نتائجها لان اهم ما يتصف به المنهج الظاهري هو انه يهدف الى اسلوب خاص بالشعور الذاتي يختفي منه كل شك . انه يود الارتكاز على حقائق الوجود الذاتي وان يخلص الفكر من عادة الشك .

ذلك لان الظاهرية تهدف الى ان تصبح علما من العلوم والى ان تخلص الفكر من الشك عن طريق الاحتفاظ بطابع علمي جاد صارم . ولاجل بلوغ هذا الغرض وتحقيق هذا الهدف ينبغي ان تنبني على منهج وان يتحول هذا المنهج الى اكثر من منهج اعني ان يصبح فلسفة . وهنا يصير الاسلوب الخاص بالشعور بحثا عن اسلوب للوجود . وحينئذ لا ينبغي ان يتعرض الفعل الشعوري لاي دافع من دوافع الشك. والمقصود بالفعل الشعوري هنا الواقعة التي تنجم عن علاقة بين الذات الانسانية وعالم الاشياء والناس . ولا يصح ان يكون الفعل الشعوري موضع شك لظهره المزدوج . الموضوعي والذاتي . فحيثما يتمثل الوجود الحقيقي في الفعل الشعوري فهو ليس عرضة للشك بحال من الاحوال . اذا ارتبط الوجود بأفعال الناس الشعورية اختفت كل دواعي الشك في هذا الوجود . والفلسفة ذاتها ـ ظاهرية او غير ظاهرية ـ ليست سوى هذا البحث عن الوجود في خيوط الافعال الشعورية لدى الناس .

ولم تسع الظاهريات للاختصاص بوجهة نظر معينة في الفلسفة ولم ترغب في ان تكون صدى لمذهب بالذات . لذلك يحل لنا ان نطلق عليها اسم العلم . فالواقع ان هوسرل قد شاء بهذه الفلسفة الجديدة او بهذا العلم الظاهري ان يعالج اشكالات الفلسفة واشكالات العلوم وموضوعات الفلسفة الانسانية في وقت واحد . ولذلك ليس صحيحا ان يقال عن الظاهريات انها نحلة او مذهب . فهي في الواقع عبارة عن منهج لا يخدم مذهبا بعينه وانما العلوم جميعا من طبيعية وفلسفية وانسانية . وعلوم الفلسفة هي المنطق والميتافيزيقا وعلوم الطبيعة هي الفزياء والرياضة والعلوم الانسانية هي علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ . والفينومينولوجيا او الظاهريات تسعى لوضع دعائم هذه العلوم وضعا جديدا بحيث تفي بحاجاتها كعلوم ثابتة وطيدة .

وقد جاءت الظاهريات نتيجة طبيعية للشك الذي راود النفوس كثيرا في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن فيما يتعلق بالعلوم جميعها ومن بينها الرياضيات ذاتها . فقد طلع علينا رسل بعبارته المشهورة عن الرياضيات في مطلع هذا القرن وهي التي يقول فيها ان الرياضيات هي العلم الذي لا يدري المرء فيه عم يتحدث وفيم يبحث ولا ما اذا كانت عباراتها صحيحة . فمن باب اولى تثير ازمة الشك في الميتافيزيقيا غير قليل من اهتمام المكرين . وعلى اثر ذلك انتابت الفلسفة الظاهرية نزعة واضحة تؤمن بالعلم وترغب في بلوغ مراتبه العليا وتهدف الى تدعيمه وتقويته وتثبيته . ولكن هذه النزعة ذاتها كانت

تتطلب منهجا . وحين نتحدث عن المنهج فنحن نخرج من دائرة العلم لنصطنع اسلوبا اعم من المقتضيات العلمية الخالصة .

ونظرة صغيرة الى الوراء تفسح لنا الطريق للنظر والتأمل . فالمنهج الديكارتي عالج الشك بالارتكان الى فكرة الالوهية الخيرة التي لا تخدع وذلك كيما يضمن سلامة المعرفة . ومنهج جون استيوارت ميل استند الى تفسيرات نفسية غير مؤكدة لربط العلوم الى وقائع الحياة . والماركسية اقامت ادعاءاتها الوضعية على ديالكتيك افتراضي . والوجودية تبني كل ايجابياتها على سلبيات عدمية . فالمنهج يقتضي عادة شبك الافكار الاساسية بمعنى الضرورة التي لا تأتي من مجرد احصاء الوقائع وتكرار التجارب .

وهوسرل يفعل نفس الشيء في منهجه الظاهري. كيف لا والظاهرية في عمومها منهج قبل كل شيء وتعتمد على توطيد هذا المنهج عن طريق مقابلة الظواهر ببراءة . لذلك استلزم المنهج طبيعة لا تشبه العلم في شيء وهي تلك التي ظهرت عندما خضع هوسرل لمقومات المذهب العقلي الذي جرفه الى تيار اللاعقلية البريئة في مواجهة الوقائع . ولكن هذا الموقف ليس الا مؤقتا في منهج هوسرل . وهنا يمكن ان نشير الى صلة الوجودية بالظاهريات . فهيدجر وقد كان تلميذا لهوسرل اتخذ من هذه اللمحة المؤقتة في منهج هوسرل فلسفة كاملة هي الوجودية . واللاعقلية صارت فيما بعد فلسفة الوجوديين ولكن المنهج الظاهري امتد بعد ذلك الى توكيد دعائم العلوم ومن بينها الميتافيزيقا والعلوم الطبيعية سواء بسواء . فاللاعقلية مجرد مرحلة في المنهج الظاهري .

وقد بزغت المشاكل جميعا في فلسفة هوسرل من نقطة واحدة استدعتها ظروف العصر بأكمله . هذه النقطة هي التي كشف عنها النقاب في كتابه عن ازمة العلوم الاوروبية والظاهريات المتعالية . ففي هذا الكتاب ظهرت الازمة الحقيقية في ذهن هوسرل حيال العلوم السارية وبدأ الشك في قيم المعارف العلمية يأخذ صورة مذهبية . فالعلم الحقيقي في نظر هوسرل ينبغي ان يقوم على اساس متين صارم دقيق. ينبغي ان تكون فكرة العلم ذاتها سليمة صحيحة حاسمة ولا يكفي ان تتسم حقائقه وحدها بطابع حقيقي . ينبغي ان تقوم فكرة العلم ذاتها على دعائم اصيلة ثابتة ولا نكتفي بمظهر عام في شرعية الوقائع العلمية . ولذلك فان العلم مع اعتماده كليا على الموضوعية في حاجة ماسة الى تبرير ذاتي وفي حاجة الى ان تقوم موضوعيته على ذاتية مطلقة .

ولهذا لجأ هوسرل الى الكوجيتو الذي لعب دورا هاما في الفلسفة الظاهرية . والكوجيتو بكل بساطة هو الاعتبار المعنوي لكلمة « انا افكر » . وقد كانت هذه العبارة بمثابة الحقيقة الاولى الواضحة بذاتها والتي تقوم مقام الاساس في فلسفة ديكارت . وهوسرل يخالف ديكارت في المفهوم الذي اعطاه لمعنى الكوجيتو . او بمعنى اصح لقد اهتدى هوسرل الى الكوجيتو في غضون فلسفته ولم يفترضه مقدما . فما كان لفلسفة الظاهريات ان ترتكن الى تفسير واحد تلقي به اضواءها على آفاق النظام المذهبي واجزائه المتشعبة على نحو ما كان يفعل السلف . ليس في الظاهريات كما قلنا وجهة نظر معينة تفرضها على اصول الفكر واقسامه وفروعه ولا تحاول البدء من اظانين او احكام قبلية سابقة خاصة بها . لم تسع هذه الفلسفة الى تطبيق تفسير موحد على حملة الظاهر الفكرية وانما ارادت ان تبدأ من المراحل السابقة على التفسيرات وعلى وجهات النظر ومن جملة ما يستتب تلقائيا في نطاق الحدس الاولى قبل اي تفكير بنائي للنظريات . او بعبارة موجز ةانها تبدأ من كل ما تمكن رؤيته وادراكه مباشرة حيثما لا نخضع للمؤثرات التي تعمينا من جانب الاحكام القبلية والتي تجعلنا تحت رحمة سلسلة كاملة من الحقائق المقررة سلفا .

هوسرل قد اهتدى اذن الى معنى الكوجيتو وهو بصدد التسلسل الطبيعي في دراسته . فليس عنده ما نسميه نقطة بدء نفترضها في اول الامر ونبني عليها احكاما وقضايا . اننا نتأمل تلك التجربة الهوشة الاولية التي يبدأ عندها الفكر الحقيقي ونحاول النظر اليها بوصفها اول الخيط نحو التفكير . فهذا يحدث في الواقع ولا يمكن ان ينشأ التفكير الحقيقي ابتداء من بناء ذاتي نفسي او ميتافيزيقي مثل النفس الانسانية او الكوجيتو الديكارتي . وفي خلال التجربة الاولية الهوشة تتساقط الاشياء في داخلية الشعور دون ان يتحدد منها هذا الشيء او ذاك . ويصل التفكير الى درجة الكوجيتو خلال عملية الاستيضاح المتصل للمصاعب المتعلقة بالتفكير والملاصقة له . وللشروع في التفكير لا بد من دراسة العلاقات المتعددة المعقدة التي تنشأ نتيجة لصلة الفكر بمدلوله . ولهذا فقد نصبت الفلسفة الظاهرية نفسها علما وصفيا بحتا.

والعلم الوصفي البحت يتعلق بالظاهرات وحسب . والظاهرة عند هوسرل هي ما يتقدم في بساطة الى النظرة عند الملاحظة البحتة . والظاهرية هي دراسة وصفية خالصة للوقائع التي تمر بالفكر وتخطو الى مجال المعرفة . ولا شك ان هوسرل يحفظ بذلك حقوق التجربة الحسية ويضع لها مكانتها فوق كل اعتبار . ولكن عمله الظاهري يلزمه بأن يفكر في امر هذه المعرفة ليدرك معناها ويستخلص شروطها واصولها. فعندما تحاول الظاهرية دراسة الوقائع الشعورية الحقيقية التي تتمخض عن احكام واستدلالات منطقية فهي تسعى لتقديم مفهوم هذه التجارب التي تمر بالنفس في الحدود الضرورية جدا لابراز دلالات ثابتة لكل التصورات المنطقية الاساسية . فأي علم يجب أن يقوم على مبادىء مطلقة .

ولهذا فان الظاهريات ترتفع بالوصف من مجال الملاحظة الى مجال الدراسة . انها مضطرة الى ذلك حيثما يلزمها ان تعقل طبيعة الفكر وشروط المعرفة . ونجد هوسرل يعجل بتعريف الظاهريات مرة اخرى بوصفها علم دراسة الوقائع الشعورية في عمومها الاساسي البحت وقد ادركتها الكائنات الشاعرة تجريبيا في اطار الطبيعة . وتنصب هذه الدراسة على الاشياء الموضوعية التي تجلت في التمثل وجعلت من نفسها معرفة . ويحدد هوسرل فلسفته من هذه الناحية فيقول انه يمكن تقديرها بوصفها نظرية متعالية للمعرفة . وهذا طبيعي حيث ان الظاهرات لا تسعى الى فهم الاشياء ذاتها او الصور التي تعكسها بشكل معين على الشعور وانما تسعى الى فهم معانيها ودلالاتها .

ولهذا فان دور الحدس كبير ايضا في فلسفة هوسرل . انه ينفذ الى الحقائق المعقولة مباشرة ويتطلع الى الماهيات . الحدس عند برجسون نفاذ الى باطن الاشياء لاستقصاء مكوناتها الاساسية بينما هوسرل يصف الحدس بأنه ادراك لما يعقله العقل . والفهم عن طريق الحدس ليس تفانيا في تأمل الماهيات بالاسلوب الصوفي او البرجسوني وانما هو تطلع الى الافكار التي تتضمنها الفكرة المدركة . وعلى هذا فالحدس ليس مجرد ادراك شيء بسيط بالضرورة بل هو عبارة عما يقدمه شيء في حد ذاته او فكرة في حد ذاتها بالاصالة . ومن هنا يمكن القول بأن الحدس يتكون من عنصرين احدهما التجربة الحسية وثانيهما استشفاف الماهية .

وهنا ننظر من ناحية الى جانب التجربة فنجد انها تقتضي عند هوسرل ان نتنبه الى حقيقة هذه التجربة على ضوء الاحالة المتبادلة بين الشعور وبين الشيء موضوع الشعور . اما استشفاف الماهية فلا يتم الا عن طريق عملية استخلاص نخلص منها الى الماهيات او نستخلص بها الماهيات .

فكيما تحتفظ فلسفة الظاهريات بطابعها العلمي الصارم الذي تطمع فيه فلا بد لها ان تظل ممركزة في « الظاهرة » . اذا كانت هذه الفلسفة تريد ان تكون لها صفة « العلمية » وان تختفي كل الملامح الشكية من طريقها كميتافيزيقا فمن الضروري ان تصوب نحو « الظاهرة» وان تحتل مكانها بين براثنها . باختصار لا بد من ترجمة العالم الخارجي عن الشعور ترجمة تحيله الى عالم ظاهري . وهذا العالم بطبيعة الحال ليس الحقيقة وانما الحقيقة التي تبدو كذلك او الحقيقة التي تنتمي الى موضوعه . بعبارة اخرى هذا العالم هو الحقيقة المرتبطة بموضوعات معينة مثل حقيقة المجرب والمتخيل والمرئي والمتمثل والمدرك والمقدر . فالعالم الظاهري هو عالم الشعور وعالم كل شيء من الاشياء التي تمر كموضوع شعوري في ذاتها .

ومن هذا كله يتبين أن مهمة الفلسفة قد اصبحت في المذهب الظاهري اختبارا للظاهرة في اشاراتها الموضوعية وفي احالاتها المتبادلة مع العالم الخارجي اي ان مهمتها هي دراسة الظاهرة وسط الاحالات المتبادلة الاساسية للفعل الشعوري . فهناك ظاهرات تنشأ عن الاحالات المتبادلة للفعل الشعوري عند تصويبه نحو موضوع الشعور من ناحية وعند التقاطه للماهيات من ناحية اخرى . والظاهرة هي وحدها المعطاة الى الشعور على سبيل الاطلاق . ولما كانت موضوعية الاشياء الخارجية نفسها لا تتحول الى مجال البحث الفلسفي الا اذا تضمنتها الظاهرة فان منبع المعرفة الموضوعية الوحيد هو الظاهرة ذاتها .

ومعنى ذلك ان الموضوعية وهي اقرب الإفكار الى العلم التجريبي لا تستطيع ان تخضع لمقومات الدراسة الفلسفية الا اذا صارت معطى ضمن الظاهرة . والموضوعية هي اصدق العلامات على تكوين الاشياء تكوينا حقيقيا . الموضوعية هي اعلى درجات الثقة في حقيقة موضوعات التفكير . فاذا كانت الموضوعية نفسها مضطرة الى ان تدخل في طيات الظاهرة اذا شاءت المثول امام العقل فان معنى هذا ان الظاهرة هي الخطوة الاولى الضرورية نحو الثقة العامة في مقتضيات الفكر الفلسفي.

الظاهرة اذن هي المعطى المقدم الى الشعور بصفة مطلقة . والموضوعية ذاتها لا يتيسر لها ان تصبح مادة للفكر او موضوعا للبحث الا اذا تمثلت تمثلا ما في الظاهرة . والبحث الفلسفي ليس سوى تحليل للظاهرة . وهذا التحليل شيء اخر سوى التحليل النفسي والتحليل الوجودي . فالتحليل النفسي يهتم باحساسات وانفعالات خالية من المضمون الموضوعي أي لا تشير الى اشياء حقيقية كما ان التحليل الوجودي لا يهتم الا باكتشاف اوضاع حيوية داخل نطاق الفرد في معاملاته واتصالاته . اما التحليل الظاهري فيقوم بتحليل الظاهرة من حيث هي احالة متبادلة للفعل الشعوري مع العالم الموضوعي . فالظاهرة هي الاخرى لا تصبح موضوعا لفلسفة الظاهريات الا بعد ان يتمثل فيها عنصر الموضوعية . وعنصر الموضوعية لا يتأتى الا بالاحالة المتبادلة . وهذا هو ما يدفع الظاهرية الى التماس الصدق الموضوعي الخالص في الظاهرة .

ولنضرب لذلك مثلا يوضحه . انني جالس الان على مقعد امام مكتب اسطر عليه كلماتي في صحائف اسندتها اليه . وتوجد امامي الى اليمين محبرة . وانا اشعر من حين الى حين بوجود هذه المحبرة ملقاة على المكتب مع بعض الكتب . وليس لي ان اشك لحظة في وجود هذه المحبرة فقد اشتريتها منذ ايام ودفعت ثمنها واتيت بها الى هنا . بطبيعة الحال وجود هذه المحبرة لا علاقة له بي كانسان يشعر بما يحيط به . انها هنالك موجودة ولم يعد وجودها متوقفا على نظرتي اليها لانني حتى ولو لم اكلف نفسي مشقة النظر اليها فستظل موجودة . ولكن وجودها قد تحول الى ظاهرة امام ادراكي لانها صارت جزءا من كيان عام تتمثل فيه كشيء مدرك من ناحية وكشيء حقيقي من ناحية ثانية. ومهما تغير وضعها او موضعها ومهما طارت الى اليمين قليلا او الى الشمال ولو اقفلت عليها علبة صغيرة من الورق المقوي فانني مطمئن الى انها محبرة . ويكفي ان يفرغ الحبر من قلمي الذي اكتب به كيما تمتد يداي تلقائيا لالتقاط المحبرة ورفع غطائها وغمس القلم فيها ثم شفط الحبر بداخله عن طريق الضغط على مؤخرة القلم .

كل هذا يجعلني اشعر بحقيقة وجود المحبرة ثم الثقة بانها محبرة ولا شيء سوى محبرة لانني عند احتياجي الى الكتابة الجأ اليها فأجد فيها ما يسد احتياجاتي الى التحرير . لذلك مهما تغيرت الاوضاع فهناك ظاهرة اصيلة هي وجود المحبرة على المكتب . وهذه الظاهرة تتأكد صحتها لان وجودها منظور اليه بالقياس الى الذات الشعورية التي تتمثل لها . فوجود المحبرة يتحول الى ظاهرة بفضل خضوعها لاشراف مشاعري ووقوعها في مدار الوعي الخاص بي ودخولها ضمن كيان عام من العلاقات . وهذا الاشراف في حد ذاته يعطي الشيء الموجود كيانا ظاهريا . واذا اصبحت ظاهرة خضعت لمقومات البحث الفلسفي بالتالي .

ونخلص من ذلك الى الدعامة الاساسية او ان حجر الاساس الذي يجعل من الظاهريات علما بمعنى الكلمة هو الاحالة المتبادلة . ويزداد حماس هوسرل في هذا المنحى حتى تجد عباراته تعطي اصداء شبيهة باصداء الفلسفات الواقعية او الوضعية وتشبه الى حد كبير مذاهب التجريبيين ونزعاتهم . ولكن هوسرل في الواقع لا يدور الا في مجالات الظاهرية ولا يلجأ الا الى حدود العالم الظاهري . وفكرة هوسرل عن الاحالة المتبادلة للشعور تلعب دورا اساسيا في كل فلسفات الظاهرية وفروعها .

ولما كانت الفلسفة في تاريخها الطويل لم تمر بفترة فينومينولوجية ولم تخضع لاختبارات ظاهرية فلا بد من اعادة تكوينها من جديد . ينبغي ان نعيد النظر في الفلسفة من اول الامر وفقا للاسس التي تقدمها فلسفة الظاهريات . فليس هناك تاريخ للفلسفة بالمعنى الصحيح لان الفلسفة لم تصادف قط علما وطيدا مثل علم الوجود الظاهري . وليس هناك ما يستحق ان يحمل اسم الفلسفة العلمية الجادة بين الفلسفات كلها . والفلسفات السالفة لم تظهر من بينها فلسفة واحدة وطيدة وليس من بينها ما يستحق اسم الفلسفة . ولهذا يمكن ان يوجد تاريخ للميول الفلسفية او تاريخ للنزوع نحو الفلسفة ولكن لا يمكن ان يوجد بحق تاريخ للفلسفة .

والفلسفة لم تعمل شيئا في نظر هوسرل سوى انها قامت بدور الابتداء ومع ذلك فهي لم تضع الاسس بعد . ومن هنا يمكن تفسير طابع الاسبقية على الفلسفة الذي يصبغ كل مواقف هوسرل . انه يعتبر نفسه دائما كما لو كان في بداية التفلسف بل يرى نفسه مسؤولا عن وضع اوليات الفلسفة . لا بد من تدعيم نقط الابتداء في الفلسفة حتى نضمن تطورها على هيئة علم جاد عن طريق زرعها في الشعور الفردي .

وهذا الجانب من فلسفة هوسرل يجعلنا نشعر في النهاية بأن موقفه النقدي الذي يحمل كل دلالات القلق بشأن حقيقة العلم الفلسفي هو نفسه الذي يجعلنا نعتقد بأن الظاهرية ليست سوى نظرية في المعرفة . فهذا القلق والاهتمام الذي يبديه هوسرل نحو تثبيت اوليات الفلسفة هو الذي يحيل فلسفته الى موقف معرفي نقدي .

ولكن هذا لا يعني ان هوسرل يتابع اي نظرية فلسفية سابقة . وفكره يقوم بالابحاث في استقلال تام عن كل الذين سبقوه . ولكنه مع ذلك تأثر بفلسفة هيوم وصار ينظر الى الموضوعية كأنها عصب الحياة في الظاهرة لما تحمله في طياتها من معنى العموم والديمومة . وأي فعل من الافعال او أي حدث يصبح صادقا وصحيحا بطريقة موضوعية اذا كان صادقا بالنسبة الى كل الازمنة وكل الموضوعات الممكنة . واذا كان الامر كذلك فالمثل الاعلى للعلم المطلق يوحي بضرورة اكتشاف الوجود المطلق . والوجود الوحيد الذي يستحق ان يحمل اسم العلم المطلق بهذا المعنى هو الذي يعطي لنا بصورة ضرورية . والوجود الوحيد الذي يمكن ان يعطي بالضرورة هو الوجود الظاهري او الوجود في الشعور . وفكرة المطلق عند هوسرل هي فكرة علمية او بعبارة ادق هي فكرة معرفية.

ولكي تصبح الفلسفة علما وطيدا يجب التوحيد بين الذاتي والموضوعي . ومن المعروف ان الوجود عند هوسرل – حتى وجود الشعور نفسه – هو وجود على هيئة شعور بشيء ما . وهذا معناه ان وجود الشعور هو وجود بالاضافة أو الحاقا بشيء او بموضوع . ولما كان الشعور اولا وقبل كل شيء فعلا من الافعال او حدثا فهو شعور بشيء محدد وليس له ان يصبح شعورا ما لم يكن نوعا من الاحالة المحددة الى شيء محدد .

والوجود اطلاقا أي بالمعنى المطلق هو الوجود في الفعل الشعوري او في الشعور . وهذا هو الوجود الواقعي الماثل وليس بالوجود المجرد . ولذلك فان اللحظة الحاسمة في هذا السياق الظاهري وفي هذا المفهوم النظري العام هي اللحظة الابتدائية التي اكتشف فيها هوسرل معنى الاحالة المتبادلة بوصفها ما يعطي الشعور صفاته الاساسية . فلما كان الشعور شعورا بشيء ولما كان وجود الاشياء والموضوعات وجودا محددا بالنسبة الى الشعور فان الاحالة المتبادلة

بين الفعل الشعوري وبين موضوعات الوجود الخارجي تصبح اساسية في مفهوم الفلسفة الظاهرية .

فهذه الاحالة هي التي تستبعد كل انواع العلم او التعالي مما قد يكون سببا او داعيا الى الشك وعدم الوثوق . وهي التي تزيل القبلية ايضا من عناصر الفكر . ولكنها تبقى الموضوعية وتوحد بين الذاتي والموضوعي وبذلك تجعل الظاهرية المتعالية هي الظاهرية الوحيدة الممكنة . بل هي الاداة التي ظل هوسرل يستعملها في حل معضلات الفلسفة الابدية واحدة تلو الاخرى . انها المبدا الذي سمح له بان يقدم فكرته عن العملية التي تصبح بها الفلسفة حقيقة فلسفة وهي عملية التحليل القصدي . ويعني هوسرل بالتحليل القصدي التفكير في الشعور بصورته الجديدة أي بصورته وهو متجه بطبعه نحو الاشياء الخارجية .

ولكن هوسرل من هذه الناحية اشبه بفرا نتس برنتانو . ولهذا تظهر على افكاره الملامح العلم نفسية التي سرعان ما يتخلص منها وينقي تفكيره الفلسفي من آثارها . ومع ذلك ففكرة الاحالة المتبادلة كانت اول الامر عنده نفس ما كانت عليه في مفهومها الذي اوضحه برنتانو وهو ان الاحالة المتبادلة هي العلاقة العقلية بموضوع متميز لكل فعل شعوري على نحو ما هو عليه . ولكن هذا المفهوم كاد يختفي تماما في نهاية كتاب هوسرل عن الابحاث المنطقية الذي كان من اوائل كتبه واصدره سنة ١٩٠٠ . ففي نهاية هذا الكتاب نجد بصعوبة لمحات من تفكير برنتانو عن الاحالة المتبادلة أن لم تكن هذه اللمحات قد اختفت تماما.

فقد انتقل هوسرل عن طريق فكرته عن الدلالة الى نوع من مثالية المحتوى الموضوعي للشعور . وهذا صار يقتضي لحظة باطنية او محايثة لكل فعل من افعال الشعور على حدة . وهنا نلاحظ تعبيره الذي يؤكد فيه ان تحليل الشعور وحده هو تحليل ماهية الموضوع . وهذه الموضوعية هي التي بدونها لا تصبح الفلسفة علما صارما . فهذا نوع جديد من احالة الذات الى موضوع ما قل او هي محاولة لتجسيم الذات . ولكن هذه في الواقع مرحلة متاخرة من مراحل الظاهرية لا تظهر الا بعد اعمال الوسائل العملية لتحقيق المنهج الظاهري . اما الان فان الظاهرية تتحقق من نفسها شيئا فشيئا بواسطة تحديد الاوصاف الخاصة بفعل الشعور بوصفه تكوينا قصديا لموضوعه الخاص به .

وهكذا نجد ان هوسرل يخضع لثلاثة افكار رئيسية اولا عن المفهومات الخاصة بالعلم وبدلالة البحث عن الحقيقة المطلقة ثانيا وبالمقاييس التي يفرضها لهذه الحقيقة المطلقة ثالثا .

فالعلم عنده هو فرع المعرفة الذي يمكن التحقق من كل عبارة من عباراته . العلم هو ما يمكن تبرير كل جملة من جمله . وبتطبيق هذا على الفلسفة يصبح المثل الاعلى هو تعريف ما يسمى بالمعرفة المطلقة الخاصة بالوجود المطلق بصورة يمكن فيها تبرير الحكم تبريرا كاملا في باطن الشعور . اذ ان هذا هو المكان الوحيد الذي يقع فيه احتكاك بين الوجود الموضوعي وبين الشعور .

فاذا قدرنا ان العلم المشار اليه هو الفلسفة نفسها وان موضوع هذا العلم الفلسفي هو الوجود ـ وجود شيء او مجموعة اشياء او عملية او حدث ـ فان الصدق النفعي او البراجماتيكي يصبح غير كاف. في هذه الحالة ينبغي النفاذ الى الصدق والصواب الدائمين المفروسين في ماهية الموضوع المعروض للبحث . وذلك يعني ان الفلسفة اذا تحققت لها صفة الجدية التي نلمحها عادة في العلوم والرياضيات واذا صارت علما على النحو الذي بيناه فانها في هذه الحالة تصير علم ماهيات ما هو موجود وليس علم ماهيات الوجود .

يأتي بعد ذلك دور الحقيقة من وجهة نظر الظاهريات التي افرغت لها اهتماما كبيرا . فنجد ان هوسرل قلما يتحدث عن الحقيقة ذاتها كمشكلة بينما يهتم اهتماما واضحا بما هو حقيقي . ان مشكلة الحقيقة لا تسترعي انتباهه وان كان تعبير الحقيقة ذاته كثير الورود في كتاباته. ان الذي يشغله فعلا هو ما هو حقيقي من جهة والطريقة التي نضمن بها ان ما نعرفه حقيقي من جهة اخرى . ولهذا فان نظرية الظاهريات المتعالية الخاصة بالصواب لا تتميز من نظريتها الخاصة بالصدق الموضوعي للمعرفة . ونظرية الصدق الموضوعي مرتبطة بنظريتها عن الوضوح . والوضوح فكرة اساسية من افكار الظاهرية . والمعرفة في نظرها لا تصبح حقيقة الا في الحدود التي يصبح فيها موضوعها معطى او واضحا . وهنا يستعين فلاسفة الظاهرية بالاحالة المتبادلة للشعور. وكلما قمنا باستخراج المقتضيات العامة لمذهب الاحالة المتبادلة اصبح من اليسير لنا ان نقوم بتفسير فكرة الوضوح من حيث تعقيل كامل للتجربة أي من حيث هي منطق كامل للوجود . فها هنا نجمع في هوية تامة الموجود والصادق . فالموجود هو الصادق والصادق هو ما يضعه العقل موضع التفكير .

ثم يأتي دور مقاييس الحقيقة فنجد ان الظاهرية تحاول تحديد المثل الاعلى للصدق ولكن هذا التحديد يتحول الى شرح اخر للفظة الوضوح . فالذاتية المتعالية قد اشارت على وجه التخصيص الى نشوء الوجود الصادق في الاحالة المتبادلة للشعور .وهنا يصبح الوجود الصادق هو الوجود المعطي في ذاته أي الوجود الواضح . والفلسفة الظاهرية فلسفة جادة جعلت مثلها الاعلى الذي تسعى اليه هو الصواب الموضوعي لمعرفتها .

وهنا يتعين علينا تغيير الكوجيتو الديكارتي أي عبارة انا افكر . والكوجيتو الجديد لا يثبت وجود الانا ولكنه يتجه الى تدعيم فعل الكوجيتو ذاته . وبدلا من ان نقول : انا افكر فانا اذن موجود . تصبح عبارة الكوجيتو الظاهري : انا افكر فذاتي المفكرة اذن موجودة . واهمية الكوجيتو الجديد تظهر في محاولته ابراز الكوجيتاتوم اي مادة التفكير الى جانب الكوجيتو . وعبارة انا افكر اذن فذاتي المفكرة موجودة لا تعني شيئا سوى وضع الكوجيتاتوم ـ اي موضوع التفكير ـ وضعا قويما مناسبا للظاهريات . والكوجيتو بذلك هو ذاتي المفكرة وقد احتوت على موضوعات للتفكير . والكوجيتاتوم هو ما لا يمكن ان يصبح الكوجيتو بدونه . وهو ما يظهر بنفس اسلوب الكوجيتو المباشر وبنفس الثقة والوثوق فيه . واهم مقياس من مقاييس الصدق الحقيقي الواضح هو ان يصبح الكوجيتاتوم أي موضوع التفكير مالكا لنفس خصائص الكوجيتو او الانا المفكر . وذلك لان اخطر حقيقة تعرضها الظاهرية هي ان وجود الكوجيتاتوم أو موضوع التفكير لا يمكن ان يكون محل شك .

وبهذا المعنى الجديد يصبح كل من الوجود والصدق دالتين للوضوح . فالموجود هو المعطي الى الشعور والموجود بصورة مطلقة هو المعطي بصورة مطلقة . اذ اننا اذا كنا قادرين على اظهار ان الوجود الذي يملكه أي موضوع على هيئة كوجيتاتوم هو وجوده الحقيقي نصل بذلك الى وجود موضوعي معطي بصورة مطلقة وهو نفسه بالتالي الوجود المطلق ذاته .

وهكذا يمكن من هذا العرض الوجيز أن نكتشف معنى الظاهرية . ونرى بذلك ان مثالية هوسرل على هذا النحو ليست مثالية ميتافيزيقية بأي معنى من معاني الفلسفات القديمة . انها فلسفة محايدة ميتافيزيقيا أي انها فلسفة لا تحاول ان تبعث المثالية في الموجودات وانه اتحاول ان تأخذ المثالي في اعتبارها وتكتفي به بوصفه كل الوجود الذي تحتاج اليه.

وقد رأينا ان الظاهريات تغرس كل جذورها في واقعية الظاهرة وتجعل من هذه الظاهرة مادة للتفكير عن طريق الاحالة المتبادلة للشعور. وبهذا تخلق كل حقيقة الشعور عن طريق الملأ الذي تفرغه فيه حقائق الحياة والوجود وتجعل وجود الظاهرات مباشرا كموضوع للتفكير . وبهذا تصبح للظاهرية كل صفات العلم من جهة ومن ذلك تحتفظ لذاتها من جهة اخرى بفلسفة حقيقية تخضع لمقاييس الوضوح والاستبانة . ولذلك نتحدث عن مثالية جديدة لا تضع في اول الطريق مبدأ او مجموعة من المبادىء التي تستخلص منها كل أفكارها ونظراتها وانما تخلق حقيقة موضوعات التفكير في كل لحظة بحيث تصبح الحياة كلها فلسفة للظاهرات .

القاهرة — عبد الفتاح الديدي